مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد:25 عدد:61 السنة:2021

أزمة الحضارة الغربية من منظور عبد الوهاب المسيري

-مرتكز العلم أنموذجا-

The crisis of western civilization from the perspective of Abdel-Wahab El-Messiri -Anchor science as a model

أ. مريم شقراني[1]
مخبر الدراسات الإسلامية واللَغوية
جامعة عمار ثليجي الأغواط(الجزائر)
m.Chougrani@lagh-uni.dz

،1

تاريخ الوصول 2021/04/20 القبول 2021/08/01 النشر على الخط 2021/12/15
Received 20/04/2021 Accepted 01/08/2021 Published online 15/12/2021

ملخص:

نقل العلم الغربي الحديث في إطار تمركز وانتعاش المنظومة الحضارية وتوسع نطاقها، الإنسان إلى مراحل تقدم مادي مذهلة، حقق من خلالها طموحاته في الارتقاء بحياته-ولا يزال-يحاكي أبعد من الافتراضات التي سعى لتكريسها؛إلا أنه ومن وجهة موازية أرفق بمسار شامل من الأبعاد التراجعية ظهرت تدريجيا منذ البدايات الأولى للخوض الواقعي، قبل أن تكشف عن نفسها بمجمل المجالات، وهو ما جعل"عبد الوهاب المسيري"يتابع تبديات التأزم الغربي العلمي، متقصيا للمحيط العام الذي تشكل في خضمه، ومنطلقات اكتساح تطورات الغرب وآثارها.وعليه يمكن أن نطرح الإشكال التالي:فيما تمثلت أبرز تجليات التأزم العلمي الغربي الحديث، ومآلاته الإنسانية بفكر"عبد الوهاب المسيري؟

الكلمات المفتاحية: أزمة-الحضارة الغربية –العلم-عبد الوهاب المسيري

Abstract:

The modern western science has transferred man to amazing stages of material progress within the concentration revival and expansion of civilizational system .Man has being achieved his aspirations to advance his life-and his still-, mimicking more than the assumptions that he sought establish. However, , from a parallel point of view, it was attached to a comprehensive path of dimensions the gradually emerged from the very beginning of the realistic struggle ,before it revealed itself in all areas. This has led Abdel-Wahab El-Messiri to follow the manifestations of the scientific western crisis through investigating the public environment in which it was formed as wel as the starting points of sweeping the developments of the west and their implications. Therefore. the researcher tries to enquire the following what was the most prominent manifestation of the modern western scientific crisis and its human potential according Abdel-Wahab El-Messiri?

Keywords: crisis, western civilization, science/Abdel-Wahab El-Messiri.

[1]- المؤلّف المراسل: مريم شقراني البريد الإلكتروني:**meriem.chougrani03@gmail.com**

مقدمة:

مثل مربط العلم بالنسبة للإنسان الحديث السبيل الأمثل الذي يحرر قدراته، ويدفع به قدما لحياة رفيعة فينسج من خلاله بذور حضارة يرتقي من خلالها بكيانه ويطور أنساق تسهم في تيسير حياته والإثمار داخل الواقع الوجودي، وتحفظ توازنه باعتباره كائنا عاقلا متعاطيا مع الطبيعة متمايزا عنها.وقد اتخذ الفكر الغربي المحيط الحسي منطلقا و العقل البشري آلية لمطاوعة مستلزمات رغباته وطموحاته، وراح يتقصى متغيرات الطبيعة المادية ويحاكي تصوراته بشكل مفتوح وأفقي، وسط عالم مكتف بذاته.

سار العقل الغربي، عبر تيار العلم الذي انعزل شيئا فشيئا عن المسلك المعياري المتجاوز للواقع، بعيدا عن المرغوب والمأمول منه، وهو الإنشاء الحضاري التوازني والتوليد الإنساني الواقعي والمتسامي؛ليتجه نحو تحريك الجناح المادي من الحضارة وتفعيل نشاط بوابة العلم أكثر ناحيته دون قيد أو شرط مع التحامه تواصليا مع الطبيعة المادية؛وهو ما جعل عبد الوهاب المسيري(1938-2008) يشير للأبعاد الكبرى التي وصل إليها العلم الغربي الحديث، تبعا للمنطلقات التي تحركت رؤاه النظرية ومن ثم العملية في خضمها وعلى أسسها، ويربط من ثم بين تجليات البؤر التي تخللت دائرة العلم وعكست حالة الحضارة الغربية الحديثة، وتراجعاتها المعرفية، وبين دور الإنسان بين التمركز والتواري، بمشوار مخططه العلمي التحديثي، وتبعات ذلك واقعيا.

تهدف الدراسة المعرفية المتابعة لحلقات التقدم العلمي الغربي الحديث عند المسيري إلى تقصي أبرز تبديات الأزمة الحضارية-العلمية-، لإلقاء الضوء على أهم المرتكزات التي اعتمد عليها الكائن البشري في صناعة واقع جديد، سكب داخله تجربته الحضارية بفضل ما حصّل المسار العلمي من صعود، تخللت طريقه تراجعات انعكست على المستوى العلمي ذاته وكذا على الطبيعي المادي بل حتى على المستوى الإنساني.

لقد شكلت بنية العلم الغربي وتوجهاته، وتقاسيم العلوم الحديثة التي بثها بالإضافة إلى نتائجها والتغيرات العينية التي أحدثتها، ومن ثم المنعطفات والتعرجات المسايرة واللاحقة لخطواتها، منفذا هاما صقل رؤية المسيري العامة والخاصة لنموذج الغرب الحديث ومظاهر تأزماته تبعا لركيزة العلم، والتي رسمت المخطط الحضاري ذاته في صورته التقدمية.وعليه يمكن أن نطرح الإشكال التالي:فيما تمثلت أبرز تجليات التأزم العلمي الغربي الحديث، ومآلاته على الإنسان بفكر عبد الوهاب المسيري؟

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي لدراسة الأزمة الحضارية الغربية الحديثة بجزئية العلم بعرض مرجعيات العلم الغربي الحديث بالنسبة للمسيري وبدايات ولوج محدداته، وتفرعاته وبيان جوانب انحرافه ورصد تدرجات مرحلية علاقته بالإنسان، مع محاولة استقراء رؤية المسيري لتعرجاته وتأثيراته.

أولا- تشكيل الرؤية العلمية الحديثة وتبعاتها

1. المحددات المعرفية للغرب الحديث (البنى والمنطلقات)

قامت الرؤية الغربية العلمية الحديثة على أنقاض رصيد متراكم من الفكر الرجعي لعصور الانحطاط والذبول، جمدت وتكلست في خضمها الأسس التي تنهض بالإنسان، وتقود خطواته وسبله لأشواط نماء تكفل خلق محيط واقعي إنساني رائد، يضمن الوجود المركزي الحيوي للكائن العاقل وفعاليات قواه.فتبلورت التصورات الجديدة من أطر تتجاوز الخلفية الميتافيزيقية تركن إلى المرئي و الملموس تدريجيا تبعا لما يتيحه التوجه العقلاني، الذي مهد الطريق وأتاح المجال أمام تربع الفكر الاستناري وتداعياته؛الذي انطلق من تكريس الثلاثية: الإنسان/الطبيعة/الكون، فسلم العنصر البشري زمام تأطير وتسخير الطبيعة المادية، وسمح له بأن يمتد فيسرح في تناول واستخدام مدركاته للتوسع الواقعي الغربي فالكوني.

وضع العقل الغربي الحديث مجموعة افتراضات انطلق منها و استند عليها وراهن عليها في تغيير وضعه ولبناء تحديثي حضاري يشيده الإنسان من خلال عقله، فمحرك العلم تبعا للتوجه المادي بعالم واحدي هو العالم المحسوس الذي يتمثل باعتباره الضمانة الشاملة والمحيطة بتحركات الكائن العاقل، تفاعلاته وتقدماته ؛وبالتالي قد أزاح بذلك مجمل الخلفيات النظرية التي حكمت الفكر وكبلت خطاه قرونا، ليفسح المجال أمام أفكار مثبتة، واقعية، متماشية مع سائر التغيرات، مستجيبة لرغبات الإنسان محققة لطموحاته.

كل ما يحتويه العالم من أشياء، حتى الملكة العقلية البشرية، تستقر داخل الزمان والمكان، ورغم ذلك فملكة العقل قوة خلاقة في استطاعتها استيعاب قوانين الطبيعة بشكل تام ومعرفتها، وفي استطاعتها بلوغ الواقع واستيعابه وإقرار الأحكام عليه.فالملكة العقلية هي مرآة الواقع التي تبرزه إلا أنها مرآة خلاقة.وهي تبلغ إلى معرفة كلية تستجيب للقياس من أجل برهنة مدى صدق أو خطأ مقولاتها أو أي فرضية سواء فطرية أم مكتسبة.ومعرفتها ترتكز على أسس المنطق والحواس والتجربة المباشرة وترتبات التجارب التاريخية السالفة.فالواقع يتركب من دواعي وترتبات وهو في إجماله يركن ضمن تجمع السببية الصلبة الكلية المطلقة، فكل الأشياء لها دواعي والدواعي متصل بعضها ببعض وكلها ترجع إلى مرتكز مادي.والمعرفة التي يبلغ إليها البشري في الاستطاعة تطبيقها بصورة واعية على المجتمع.هذا ما يمثل التصور العلمي الموضوعي (العقلانية المادية)وتطبيقه على محيط الواقع هو التكنولوجيا وعمليات الترشيد على تباينها.وهذه المعرفة العلمية الكلية تنطلق بخطوة في مساحة العالم المادي وتجعلها معلومة بعد أن كانت مجهولة محفوفة بالأساطير والخرافات، ثم تزداد مساحة المعلوم تدريجيا إلى أن يتم نسف المجهول(الغيب)بشكل كامل(أو تقريبا)ويظفر الإنسان استقلاله التام(أو شبه التام)ويستقل تقريبا من الطبيعة ويهيمن على قوانينها ويبلغ إلى كماله. سيدفع هذا إلى تسريح الإبداع الفردي والجماعي بلا قيود، وإفلاته من الأشكال الاجتماعية والثقافية المتهيئة.فالتحديث بذلك، هو مخاطرة البشري في الكون، مرشده الأوحد هو عقله الخلاق(وقوانين الطبيعة)وتتبدى علوم طبيعية إنسانية تعاون الإنسان في مخططه التحديثي والترشيدي وسيبلغ الإنسان إلى مستويات بالغة أو معقولة من اليقينية.مع بدء المخطط التحديثي، كان التقصي عن يقين علمي تام وسببية صلبة ومطلقة، إلا أنه تم الانسحاب عن هذا الأمل المطلق وأخذ مكانه أمل جزئي مفتوح إذ يكون الكلام عن توسع اكتمال نماء الشخصية الإنسانية وتحضرها، عبر حصدها معارف جديدة يمكن أن لا تكون يقينية بشكل كامل إلا أنها أكثر يقينية من المعرفة التي استقرت في القرون السابقة.[1] و هكذا تكونت البنية الفكرية العامة وارتسمت الخطوط العريضة للمشروع التحديثي الغربي، وفي طياتها البذور الأولى التي أسست وشكلت الرؤية العلمية، وقادت طريقها إلى أرض الواقع لتحقق آمالا وتوجهات ألحت إلا أن تقدم الفكر العقلاني الصارم إلى الواجهة وتراهن عليه في تمرير الطروحات والتطبيقات العلمية وفق أسس مادية ؛إذ تنطلق من الإنسان وتندفع به في علاقة مباشرة موازية مع الطبيعة المادية بعمليات متواصلة من البحث والتقصي عن الحقيقة فالحقائق عن كل شيء يمكن أن يضيف جديدا، فيعزز إصلاحا للأوضاع من خلال الكائن العاقل وإمكاناته الشاسعة لتسخير خيوط إنارة الواقع ودفع تقدمه إلى الأمام.

لقد مثل الإنسان النقطة المركزية التي حركت الفكر لتغيير الاعتقاد وتكوين الرؤى من جديد، وتحفيز النظر نحو الواقع بما يتلاقى مع المحرك العقلي؛وهو ما مهد الطريق أمام ولوج واندفاع الطرح الاستناري–الإنساني– الذي احتفى بالموجود البشري بفضل ما يحوزه من ملكاته الذهنية والنفسية، التي تؤهله ليكون المرتكز الأساسي لخلق جناح إصلاحي تحديثي فحضاري–غربي– يكرس التسليم بإمكانيات الإنسان

[1]-عبد الوهاب المسيري وآخرون، –، الحداثة وما بعد الحداثة(ندوة) من المقالة المعنونة ب"التحديث والحداثة"، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 1998 ص70، 71

الغربي، ومن ثم إطلاق مصبها أكثر فأكثر؛تمكينا للتعاطي مع المحيط الواقعي، و إضفاء تحسين و تطوير المجالات الحياتية، وذلك من خلال الفكر العلمي و تقدمه الفكري والعملي وتبادلية العلاقة التي يضبطها بينهما الطرح النظري والتطبيق التجريبي.

على الرغم من الاهتمام الذي منحه الفكر الغربي الحديث بتصوره ونهجه، -والتي مثلت انطلاقته التحديثية -ناحية الإنسان، وتركيزه على ما يمكن أن يتابعه العقل من ارتقاء علمي متواصل بالعالم الفيزيقي في إطار مفتوح الأبعاد متحرر المحددات الفكرية و التوجهات التي يمكن أن يسلك من خلالها ؛إلا أن ارتباط الإنسان بالطبيعة المادية، والتزامه الواسع بمتطلباتها، وبما يتوافق مع مركباتها من جهة.و بما يضمن سيرانا تطبيقيا سليما فنتائج كما ينبغي لها أن تكون من جهة أخرى، قد ساق إلى الارتباط أكثر بالمستوى الواقعي المادي، وتسليط الضوء على الإمكانات والآثار التي يكرس إليها المعطى العلمي، في اتصاله وتطبيقاته على الطبيعة المادية بشكل مبدئي أو على الإنسان قياسا على مستخلصات ذلك.

يبدو شكل النزاع بين النمطين(المتمحور حول الإنسان والمتمحور حول الطبيعة/المادة) و يتضح مع التخلص من الأول لصالح الثاني، في إطار ترابط الفرد البشري بالعلم والتكنولوجيا وبالعلوم الإنسانية-حسب المسيري- الذي يلجأ إلى أنماط تحليلية مستنبطة منها، فالتصور الاستناري لا يرضى إلا بالقوانين التي يبلغ إليها العقل الإنساني اعتمادا على حقائق الطبيعة/المادة، ويأنف أية غائيات.وعن هذا، أنف المستنيرون الفلسفات السكولائية اللاهوتية التي تقدم استفهامات غائية على شاكلة:لماذا خلق الله العالم؟ولم يقبلوا بالإيضاحات الغائية القديمة.وصار الاستفهام هو:كيف خلق الله العالم، وكيف يديره ثم تنامت نسب الاستنارة والعلمنة وتردت الغائية، وصار الاستفهام هو:مما يتركب الكون؟وما آلياته وحركياته؟وما القوى التي توجهه من داخله؟ أي أن أية علامة مرجعية مفارقة للمادة قد أزيحت. لكل هذا، استقل العلم تماما عن أية أثقال أخلاقية أو فلسفية، وشرع في خوضه المذهل، فكشف عديدا من خفايا المادة وآليات الظواهر التاريخية والاجتماعية، وتضاعفت إنجازاته بصورة لم يصلها البشر سابقا.وحققت العلوم الإنسانية(التي تلتجئ و تستعين بالمناهج العلمية المادية الدقيقة)قفزات مذهلة، وصار الطموح واسعا في أن يحقق الإنسان لنفسه السعادة الدنيوية والمحورية البشرية.وهنا يشرع النمط الثاني (المتمحور حول الطبيعة/المادة) في تثبيت نفسه، وتعرض المسائل :أن الكلام عن السعادة هو صورة من صور الغائية الإنسانية(التي تصف المحورية البشرية)، و بعد، فهو صور من صور الاعتزاز الإنساني(بل إن الادعاء بالغائية، في آخر الأمر، هو ادعاء بالعناية الإلهية)، فكأن الفرد البشري يرى أن له قيمة خاصة في الكون، وأنه عنصر منفرد ومنفصل عن الكل الطبيعي له قوانينه المتعلقة به.ولهذا، كان لازما إبطال الغائية الإنسانية نفسها، وكان لازما إعادة تعريف السعادة لتصير"تحقق القانون الطبيعي وانقياد الإنسان له"، إذ ليس في الاستطاعة تصور وجود غائية إنسانية منفصلة عن الغائية(أو اللاغائية) المادية الكونية.ومن اللازم تطبيق المناهج العلمية على الكائن البشري لتصير العلوم الإنسانية في دقة العلوم الطبيعية(لأن هناك قانونا واحديا ينطبق على الطبيعة والفرد البشري).وهذا يدل، في الحقيقة على انقياد الإنسان نفسه للقياس العلمي دون غاية إنسانية أو مرمى أخلاقي، حتى يضاء تماما وتعرف قوانينه ومن ثم السيطرة عليه، فالقضاء عليه كما نعرفه كموجود مركب متخطي لقوانين الطبيعة.كما يدل على اقتصار معيشة الإنسان الغنية الباطنية إلى تبدياتها الخارجية السطحية وفقط، تبعا لمنظومات تحليلية كمية تفكك الحقائق النفسية والمعيشية العميقة[1]فبعد أن عزل الإنسان الغربي العالم المتجاوز وقضاياه ومساحة البحث حوله، واعتبر تداول تقصيها مجهودا لا طائل منه؛تناول ما يقابله من عناصر وزوايا الطبيعة المادية، التي أتاحت له كشف العديد من الحقائق الجزئية-بدل التطلع للحقيقة المطلقة!-بفضل امتداداته العقلية وتوغلاته المعرفية بمختلف السبل والآفاق، فأسهم ذلك في تحسين مجرى حياته كما سمحت له

[1]-عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، القاهرة، المجلد1، ط1، 2002، ص311، 310.

بالعدول عن العديد من الأفكار والافتراضات التي انطلق منها وسعى نحو البلوغ إليها؛في ظل تبلور النتائج-المادية-التي أكدت التفوق لقوانين الطبيعة ومسارها الدوري المضبوط.

لقد انتقل الكائن البشري واستسلم-في إطار نسجه لمشروعه التحديثي الحضاري-إلى الامتثال لمعايير المادة، مع إقراره بالاكتفاء بعالم واحدي، فيغدو الإنسان جزءا ماديا حليفا خاليا من أي معطى معنوي بما في ذلك ملكته العقلية، التي فسرت وردت إلى عناصر -مادية- .من هنا وعلى إثر الانتصارات الساحقة —المرئية-بميدان التجريبيات من العلوم الجامدة المرتبطة بالطبيعة وارتقائها تدريجيا؛طمح وانتقل الفكر الغربي لدفع علوم الإنسان الحية المتصلة بكيانه بمستو سلس، نظرا لتكريس التوافق أو بالأحرى التطابق بين الإنسان والمادة.

2. الفكر العلمي والتوجه المادي بين التدفق، التردي والتأزم:

الإطار المادي حصل وجودا في مجمل الحضارات وكان باستمرار ثانويا.إلا أنه انطلاقا من القرن السابع عشر في أوربة انطلق يسير شيئا فشيئا نحو المحور، ثم استلم جرعة شديدة في القرنين الثامن والتاسع عشر من الاكتشافات العلمية، التي كانت ترتكز على رؤى علمية خاطئة مثل قانون السببية البسيطة الذي تكون في غلاف التصور النيوتني (المادية الآلية) للكون.وعالم نيوتن عالم مثبت مقفول يتميز بالحتمية الميكانيكية، وتفسير العالم، وفق رؤيته، يحتكم إلى آليات الوجود الفيزيائي للذرة(الجزيء) وقوانين الحركة.وابتداء من هذا، تبدى التصور العلمي المادي الذي زعم بأن هناك قوانين تسير عالم الظواهر مستخلصة من الاستقراء المرتكز على المشاهدة والتطبيق، وسنده الأول في ذلك مبدأ العلية وإلا الحتمية، وأنه ليس الاستطاعة التكلم عن تأملات بمعزل مخابر البحث وترتبات التجريب.وقد بقي هذا التصور مهيمنا بشكل كامل حتى ختام القرن التاسع عشر.ومنذ ذلك الزمن، بدأت الاعتراضات تسدد إلى مفهوم العلم ومطلقاته العلمانية الغيبية، كالتسليم بالعلم بكونه الأساس الأوحد للقيمة.فبدأ علم الأنثروبولوجية يبين أن للعلم تاريخا، وأن مرامي العلم البيزنطي والإسلامي تتباين عن مرامي العلم الحديث مما يفسح المجال للبذل.بالإضافة إلى أن النظام المقفل للعلم بكل افتراضاته عن الحتمية والموضوعية ومطلقية الفضاء والزمان وإمكانية المشاهدة الموضوعية التامة للمحيط الواقعي والسببية الصلبة، بمعنى أن السبب(أ)يقود إلى النتيجة(ب)بكل سلاسة، كما تؤدي الحرارة إلى تمدد الحديد قد تم هدمها، ومن ثم فالعلم لم يعد متماسكا ومطلقا مثلما كان في السابق وأنه صار في وضع سائل.لقد أفضت نظرية الكم (الكوانتم) واللاتحدد (هايزنبرج)والنظرية النسبية إلى تقليص أهمية كل هذه الافتراضات..[1]فبعد أن أتاح إسقاط المبادئ الدينية/الأخلاقية/الإنسانية للعلم المجال على مصراعيه، ليساير الطبيعة ويسعى للتحكم فيها ككل تدريجيا بشكل مطلق؛وبينما كان يواصل تقدمه اصطدم بحائط المراجعات، الطروحات العلمية فالنظريات المغايرة بل المناقضة لعموميات وتفاصيل نسق"نيوتن" ومطلقاته، التي انزاحت باعتبارها تفسيرات ارتبطت بزمان نشوئها وظروفه، ووصلت حدا استنفذت فيه فعاليتها ومن ثم استقرار معطياتها.

تابع العلم "الكلاسيكي" حلقات نموه داخل إطاره، وضخ تطبيقاته الساحقة بنطاق العلوم المادية على وجه الخصوص، إلى أن وصل طريقا مسدودا وبؤرا ظهرت إلى السطح، مما ساهم في ترسي "أزمة العلم" ، التي استنبط حلها أساسا من خلال تفكيك مجمل خيوط شبكة النظرية السابقة والقضاء عليها، وغيرت نظرة الإنسان تجاهها وتجاه النشاط العلمي ذاته، ومن ثم فقد مثل فاصل"التأزم العلمي"الفتحة المتاحة لسلسلة جديدة يستأنف عبرها الإنسان عمله العلمي الدائب، ولولاها لما كلل العلم انجازات عميقة ومكثفة وفعل ابستمولوجيا مغايرة وجديدة.

[1]-عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحداثة والعولمة، (محاورات)، تحرير، سوزان حرفي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2013، ص41.

شرع انبعاث الإشعاع شيئا فشيئا في الانقلاب على الحال الذي اعتقدت الفيزياء الكلاسيكية أنها طوقته.ثم تفاقم أمر الإشعاع حتى استطاع في القرن العشرين من سحب معظم عالم المادة من الكون الحتمي المسد المتماسك البسيط، ودفع بها في عالم اللاحتمية الفسيح الطيع ذي الذكاء العميق، لقد استحالت أكوام المادة الصلبة إلى إشعاع، إلى احتمالات موضوعية..ومجمل ما يعارض الحتمية الميكانيكية التي ألفناها لب الفيزياء الكلاسيكية وقاعدة إبستمولوجيا العلم الحديث.فكانت أزمة علمية منهكة، استقرت في تلقي القرن العشرين، (..)وقد كانت ميكانيكا الكوانتم ونظرية النسبية اللتان أبدعهما القرن العشرون يمثلان منفذا من الأزمة، من خلال تحطم الحتمية الميكانيكية ومن ثم تحطم رؤية حقيقة الكون وطبيعة العلم اللتين استقر الاعتقاد أن نيوتن قد اكتشفهما.وبعد أزمان من الإيمان الثابت، تبين أن الفيزياء الكلاسيكية لا تمثل اكتشافا لهذا أو ذاك، بل محض تحقيق نجاح فذ ونظرية رائدة في ميدان مقدر وسطحي من الظواهر.بذا في الاستطاعة جعل أزمة الفيزياء الكلاسيكية بمثابة رأس المال الساري والدحض السائل في ميراث القرن العشرين، وقد أحسن إنفاقه وتوظيفه لما حطم ركائز الإبستمولوجيا الكلاسيكية، واندفع إلى إبستمولوجيا جديدة، تعد حقبة متباينة خالصا من حقب التفكير العلمي، حقبة جديدة أسمى وأذكى عجلت معها نسب التقدم العلمي بشكل غير مألوف، جاوزت كل تنبأ أو حتى تصور.وكانت هذه المهمة التي نهض بها القرن العشرون صعبة صدقا، لكون أزمة الفيزياء الكلاسيكية كانت معبئة بالانجاز المتتالي والمستحدث للفيزياء الكلاسيكية وإبستمولوجيا العلم الحديث.ومعبئة كذلك بفلسفة العلم التي ينعت و ترست لتعبر عن هذا الإنجاز، لتصوغه وتفسره.[1]وبالتالي من أبرز ما توصل الفكر العلمي حقيقة أساسية نظرية نيوتن جسدت طرحا نسبيا قابلا للنقد والتجديد وإلا التفكيك؛إلا أن تعثراتها ونهايتها مثلت بلا ريب منطلقا لرؤى أكثر تماسكا ومنطقية في تعاملها مع الحقل الفيزيائي والفضاء الكوني بناحية البنية والتركيب، وإلا من خلال الواقع وراهنيته.

إن السمة الأساسية التي خرج بها العالم الحديث من خلال النموذج التحديثي العلمي الغربي ونتائجه الميدانية، هي عدم التحكم في أوضاع مركبات الطبيعة المحسوسة منها وغير المحسوسة، لا بناحية الإلمام وتقصي كل ما بالكون، ولا بمداركة المشكلات الشائكة التي آل إليها وحصدها الإنسان بالبيئة خارجه، ومن ثم بناحية القضايا التي تطرح كمقابل لنجاحات عملية واقعية توصل إليها الإنسان، مع فك قيود العلم و إطلاق سراحه بدون حدود، واندفاع تياره الذي حكم ذاته بذاته، فتتطلب تلك القضايا معالجة هي الأخرى، بقصد الفكاك من سلبياتها وآثارها الوخيمة على جسده ونفسيته، بما يجسد علاقة داخلية أكثر لترتبات العلم تستدعي إعادة النظر من جديد لمحيط الفكر العلمي العام ومرتكزاته والدواعي التي تحدد أهدافه بالنسبة للإنسان، البيئة الطبيعية والكون.

توصل"المسيري"إلى ضرورة إصدار مفهوم جديد للعلم، فقد ألغى العلم الحديث شيئا فشيئا مقولة أنه كلما ازدادت مساحة العلوم تقلصت مساحة المجهول، وهي مقولة ساذجة دفعت بأحد"العلماء"المتفائلين في القرن التاسع عشر إلى التوقع بأنه في مدة ثلاثين سنة سيعلم الكائن البشري كل شيء، ومن ثم لا حاجة للمبادئ الأخلاقية أو الإله أو معتقد الدين، إلا أنه بعد مئة سنة من التجارب العلمية، توصل الإنسان أنه كلما اكتشف وهيمن على شيء ما تبدت له آلاف الأشياء الجديدة التي لا يعلمها وليس في استطاعته الهيمنة عليها، أي إنه كلما اتسعت المعرفة ازداد جهلا.من ذلك تجربتنا مع الذرة، هذا الشيء الذي يسير بلا قانون والذي يعسر تتبعه، وكلما تتبعناه اندفعت أمامنا أجزاء جديدة داخله تدهشنا، ثم قضينا عليه لننشئ الفردوس الأرضي.ونحن حاليا في ارتباك بشأن القضاء على ناتج احتراق الوقود، وخلصنا إلى أنه قد يهلكنا ويهلك كوكبنا الأرضي معنا.وها نحن نقبض على كرة اللهب، أي العادم النووي والأسلحة النووية التي باستطاعتها تحطيم العالم عشرات الكرات.وإذا كانت السيطرة في الطبيعة هو أقصى ما وقع في تصوره العلم، فإن ما ينشأ هو نقيض ذلك، فالقضية تتعدى

[1]-يمنى طريف الخلي، فلسفة العلم في القرن العشرين، عالم المعرفة، الكويت، 2000، ص114، 115.

عالم الذرة لتعم بعض"الاكتشافات" التقنية التي نستعملها في عيشنا اليومي.فيذكر مثلا:إن الأغذية التي تتضمن محتويات مهندسة أو معدلة وراثيا توهن هيكل المناعة كما أكد في عديد التجارب العلمية ولذا فهم يسمونها أغذية فرانكنشتاين![1] وبذلك يرجح سقوط كثير من الاعتبارات الجشعة بإمكانية تصيد مجمل تدفقات المعرفة وضمها فوق بعض، بما يسمح بتدريج السيطرة الكلية على أمور الكون من طرف العلم، وسائر ما انحدر عن ذلك من خطوط انحراف توجه ووجه إليها النسق العلمي العام.إن المنظور الجديد قد ناظر وناقش الطرح الأول الذي قاد العلم الحديث، وتفطن لحقيقة جوهرية تمثلت في نسبية النظريات العلمية في حد ذاتها، وكون التفاسير والنتائج التي تقدمها والثمار التي تحصلها لا تتحدد باعتبارها مطلقات، بقدر ما تشكل إنجازا صنع وضعا رفيعا بفترة زمنية معينة سواء طالت أو قصرت.

لقد اتصلت النظريات العلمية بعضها ببعض وفقا للمنظور الجديد، اتصالا لافتا يكسوه النفور والتباعد والتعارض من جهة، والانفراد، الاختلاف والتناقض من جهة مقابلة، نتيجة لظروف العلم المستجدة والتي وسمت عالم الفيزياء، ومن ثم سائر مسار العلم تراجعيا نحو زعزعة قواعده غير المتلائمة والحيثيات المستنبطة حديثا، خصوصا مع ما طرحت الأخيرة من إضافات جليلة نقلت العلم لزوايا جديدة لم تخطر على بال ولم يحسب لها حساب، ومن ثم فالنظريات العلمية أصبحت في تخالف فتقطع الطريق مع ما سبق وتعتبره قديما استنفذ خطواته.

سمحت التوجهات الجديدة للعلم بإعادة ترتيب للبنى، بعد تصفيتها من الرواسب التي غطتها سالفا بعدما شكلت اعتقادات راسخة، للكثير من المكتشفات، التجارب، والطروحات العلمية خصوصا بحقل الفيزياء النظرية، ومن ثم فقد بات لزاما بالنسبة للعلماء تسطير آفاق جديدة، أمام التغيرات المكثفة و المتواصلة بنطاق الواقع، وانبثاق معطيات تستدعي التدقيق مع حركيتها، لتداخل خيوط أجزائها وتشابك ارتباطها؛مما يعكس جانب تعقد العلم أكثر فأكثر وتغير قوانينه وقواعده تبعا لتغير ما اعتقده ثابتا بالكون وهو ما يخبرنا به "باشلار"(Gaston Bachelard1884-1962)في قوله"..إن أساس العلم المعاصر يقوم على تركيب أول؛إنه يحقق في أصله مركب الهندسة-الميكانيك-الكهرباء؛إنه يعرض ذاته في المكان-الزمان.إنه يكثر مجموعات موضوعاته، إنه يبعث الوضوح في التركيب الابستمولوجي بدل التأمل المنفصل للأشياء المتفاعلة، وبعبارة أخرى، إنه يستعيض عن الوضوح بذاته بنوع من وضوح العمليات.وبدلا من أن يفسر الكائن العلاقة، فإن العلاقة هي التي تنير الكائن."[2]ومنه فقد ازداد العلم تركيبا عما سبق، من حيث إن الزاوية قيد الدراسة في استطاعتها أن تقودك لزوايا جديدة، فلا تكفي الإحاطة ببحث تفاصيلها وجوهر عملها من كل الجهات هذا بنحو خاص، كما أن توالي تولد البؤر دفع لتداخل التخصصات ليتم المساهمة في حل المسائل المطروحة.

لاشك أن الوضع الجديد الذي انتهى إليه العلم الحديث فالمعاصر، بعد وقفة تأزمه الحاسمة والتخبطات التي وقع فيها من جراء منطلقات اتسمت خصوصا، بعدم تلاؤمها مع المتغيرات الصاعدة التي سادت العالم المصغر للذرة الفيزيائي، فقد انتقل العلم بالإنسان إلى مرحلية جديدة بنمطه الفكري ومن ثم شبكة العلوم التي وقف على إطلاق أركانها وتفرعاتها، وانعطف ليجد العالم أمامه قد تقلص نحو التداخل بمجمل مركباته، وخروج متغيرات جديدة لاحت في الآفاق لتنال مركزية الاهتمام والمتابعة، قلبت الموازين بدائرة العلوم فمن خلال التأثير والتأثر حملت الصدارة علوم وتراجعت أخرى، بوجه تماشى مع متطلبات الإنسان المتغيرة والمتجددة على طول خط الحضارة.وعلى ذلك فقد أصبح التغير طابعا للعلم بفضل الثورة التي طرأت في مجال الفيزياء، والتي دفعت به لخطوات عظمى بطريق الانجاز العلمي فالتقني.

---

[1]- عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحداثة والعولمة، (محاورات)، مصدر سبق ذكره، ص46، 47.

*للاطلاع أكثر على انجازات الثورة العلمية من طرف نظريتا الكوانتم والنسبية على العلم الكلاسيكي، ص 217+218 ف،يمنى طريف الخولي،فلسفة العلم في القرن العشرين.

[2]- غاستون باشلار، الفكر العلمي الجديد، تر عادل العوا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1982، ص144.

ثانيا- تجليات التأزم العلمي الحديث وانعكاساتها على الإنسان

1-العلم الغربي والانسلاخ عن الغاية فالانحراف

إن المنطلقات، التصورات والأنساق التي ولدها العقل الغربي الحديث، ورصد المحيط الطبيعي من خلالها ووفق ما تمليه محدداتها ومقتضياتها.قد سلسلت بولوج تغيرات جذرية على مستوى الحياة الإنسانية والواقع، و نسجت طريقا مغايرا بل مناقضا لما ألفه خصوصا بما تعلق بإطار القيم الأخلاقية، والتي تضفي التناغم على الوجود البشري، وهو ما انعكس بعديد التبعات على مستوى المحيط الغربي الفكري التي توالى تأثيرها بشكل كامن، قبل أن يصل السطح في صورة سيل تراكمي لتعرجات لحقت توجه الغرب الحضاري الشامل ؛متسلسلة باعتبارها أحد تفرعات توجه التشكيل الفكر الغربي، الذي مر في عمومه والفكر العلمي على وجه الخصوص، بحلقات انسداد انكمش من خلالها مساره وسلك نحو فقد التوازن، تبعا للإسقاط التدرجي للمحتوى القيمي .

".والعلم الحديث، بانبعاثه من تحديد تعسفي للمعرفة في نطاق خاص يقع في أحط المستويات-وهو المنحصر في الواقع المادي المحسوس- فقد-بمقتضى هذا التحديد وما ينجر عنه مباشرة من تبعات-كل قيمة عرفانية، هذا-على أي حال-إذا أعطينا لكلمة العرفان معناها الحقيقي التام، وإذا رفضنا المشاركة في خطأ النزعة "العقلانية"(الفردية)، التي تجعل البصيرة الخالصة متطابقة مع الفكر الفردي، أي-بتعبير آخر-التي تنكر وجود الإلهام الروحي(والوحي الإلهي).والأمن الكامن في صميم هذا الخطأ، وفي عمق قسم كبير من الأخطاء الحديثة، والمتجذر في انحراف العلم..، هو ما يمكن تسميته بالنزعة"الفردانية"، المتطابقة تماما مع العقلية المضادة للتراث ذاته، ومظاهرها المتعددة في جميع الميادين، تشكل واحدا من أهم عوامل الفوضى في عصرنا؛.."[1]أي أن عملية فصل العلم عن العالم الروحي وتجفيفه من بقايا المعنى، التي قاد لتكريسها العقل الغربي، وكذا بعث تصفيته من –شوائب- القيمة المتسامية، قد مهدت الطريق لخطوات علمية تطبيقية جبارة- عاجلة-أدت في البداية إلى مركزية الإنسان وجعلت توسعاته العلمية -المادية- تنكب على بؤر نتيجة المنطلقات العرجاء التي خاض من خلالها تجربته الحضارية الحديثة.

مثلت الوجهة الفكرية الحديثة التي نادى بها العقل الغربي وبنى على أساسها تصوراته ونظرياته للإنسان، الطبيعة والكون، ومن ثم تطبيقاته الملموسة التي ارتكز فيها على النتائج –المادية- الآنية ذات المرجع النفعي، بما كرس انتقالاته من الفكر العلمي النظري إلى العلم التجريبي فالتصنيع، مع تعزيز مدار الاكتشافات ودمج تسخير وتفعيل الآلة الإنتاجية التي توفر السلع والخدمات وتمديد مجال القوة المادية واكتساحها. وما تلا ذلك من تمديد علمي و إطلاق العنان لتطورات التقنية، وتفعيل عوائدها.

يشير "ول ديوارنت"(Will Durant1885-1981) إلى تعرجات وضع العلم الغربي، بعد الالتحام بالعالم الواقعي وتتبع ما يخضع للقياس التجريبي، الذي يثمر ويحسن مجرى الحياة للأفضل فالأفضل بشتى المجالات ، ويدنو من التغيرات التي تستقطب الحركية وتتماشى مع المحيط الطبيعي، وتخوض في غمارها عمليات إعادة تصحيح مسار الفكر وتوجيهه الوجهة المادية، حتى يحقق التوافق مع عوائد العلم وتمخضاته، وهو ما يفسر توالي-استسلام- وتسليم العلم النظري زمام تسيير الواقع للفكر المادي فيقول "..إن فضل العلوم الرياضية والميكانيكية في تطور العلم الحديث وانتعاش الصناعة والعلوم الطبيعية تحت ضغط الحاجة إلى التوسع، قدما للتفكير والتأمل قوة مادية دافعة.وأصبحت أكثر العلوم نجاحا نماذج للفلسفة على الرغم من إصرار"ديكارت"و إلحاحه في أن تبدأ الفلسفة سيرها من النفس ومن ثم

[1]- عبد الواحد يحيى، أزمة العالم الحديث، ت، عبد الباقي مفتاح، عالم الكتب الحديثة، إربد-الأردن، ط1، 2017، ص64، 65.

تتابع طريقها إلى العالم الخارجي.لقد دفع تصنيع أوربا الغربية الفكر بعيدا عن الفكر، واتجه به إلى الأشياء المادية."[1]ومن ثم فقد أخرج الطريق العلمي الحديث إنسانا جديدا، مثله الكائن البشري المادي؛الذي اصطبغ بمحددات وخصائص العلم المادي وتماشى شيئا فشيئا مع نتائجه والمتغيرات الجديدة التي أثارها وقلب عبرها عديد البنى والحيثيات، على مستوى الواقع الإنساني والبيئي الطبيعي؛ليدنو العالم الغربي بنسقه الفكري المنعكس على الأرجاء من إعادة ترتيب لأطره، واستغناء عن الطابع الميتافيزيقي للفكر الفلسفي وتوجه أحادي نحو المحيط الفيزيقي المحسوس، الأكثر فعالية حركية مباشرة.

في إطار تنصله عن القيمة، سعى العلم الغربي الحديث نحو تنفيذ مجمل طموحات العقل الغربي في صناعة وتكريس عناصر البيئة الطبيعية خدمة بل ومساحة لتضمين الواقع الصبغة الغربية الآيلة للتفوق..تم ذلك من خلال هيمنة "العلم المادي" وتحكيم معيار الآلية النفعية وسط تملص التمركز الإنساني/الإنساني وتراجعاته ومن ثم انسحابه أمام التمركز الإنساني المادي؛وانجازاته العلمية"الواقعية"الأمر الذي يلفت النظر إليه"المسيري"فيورد "..وحقق العلم الغربي انتصاراته الضخمة بسبب حياده وموضوعيته الرهيبة، وانفصاله عن القيم التي هي في واقع الأمر تجاهل للإنسان وغائياته وقيمه ومثالياته ومطلقاته وتبني لمثل النفعية الداروينية."[2] وهو ما أحدث تناقضا واضحا لحضارة أكدت تفوقها المادي وتراجعها الإنساني لحد غيابه عن المضمون الذي يمنحه داخل الوجود.وتفرد الفرد العاقل الصلب، الذي يتابع تجارب العلم، توجهاته وتفاعلاته بكل الأصعدة فينصاع مع متطلباته مهما كانت طبيعتها، ومهما كانت تبعاتها ومآلاتها سواء على المستوى الطبيعي المادي أو على المستوى الإنساني، الموازي له والمتكافئ معه.

فالتقصي لمجرد التقصي، أسمى من الرغبة في نيل نتائج جزئية ومتفرقة يرجع إليها ؛إنه الاطراد المتعجل لنظريات وفرضيات لا مركز لها، ولا تكاد تترسى حتى لتسقط وتأخذ مكانها أخرى أقل وقتا، فهي تمثل فوضى فعلية لا فائدة من التقصي فيها عن أجزاء صامدة ومستقرة نهائيا، فلا وجود فيها إلا لتكدس وتكوم عظيم من الأحداث والتفاصيل التي لا يمكن أن تثبت شيء ولا أن تشير إلى شيء.وفي هذا الموضع يتحدث بالتأكيد عن ما يرتبط بالجزء العلمي النظري، بقدر ما يزال موجودا.أما العلوم التطبيقية، فخلافا لذلك هناك نتائج لا يمكن تجاهلها، وهذا مستوعب بسهولة، حيث أن التطبيقات تترتب لتدخل مباشرة في الحقل المادي، وهو الحقل الوحيد الذي في استطاعة الإنسان الحديث أن يتفاخر بغلبة حقيقية فيه.وبعد فمن المحتمل أن يتسارع ويتضاعف نماء الاكتشافات أو على نحو أدق المخترعات الميكانيكية والصناعية إلى نهاية العصر الحالي؛ومن يعلم ما إذا كانت مخاطر الخراب التي تتضمنها هي إحدى أهم البواعث الأساسية للمصيبة العظيمة الأخيرة، إذا وصلت الأمور إلى المستوى الذي لا يمكن من توخيها؟[3] خصوصا مع ضياع الغاية التي تضفي على الكون معنى، وتكسي الموجود العاقل تميزا وتجاوزا للمعطى المادي وبقية الكائنات المقابلة لكيانه، وبالتالي توالي تكدس وتبعثر المخلفات العلمية بحيز الفكر والتطبيق، واشتغال الإنسان عليها وانشغاله بها، وسط تواري الهدف المرجو من العلم وهو تفعيل التسامي بالإنسان ذاته لإسعاده على المستوى الجواني به.

2.الأزمة الإنسانية للعلم الغربي الحديث: إن الرؤية الشاملة للعلاقة المتبادلة بين العلم والإنسان من جهة، وبين الإنسان والحضارة من جهة موازية ليجد الترابط الأساسي للثلاثية:علم-إنسان-حضارة، ليكرس الطابع التكويني للتاريخ الإنساني والانتقال والاختلاف الدائر بين

[1]- ول ديورانت، قصة الفلسفة، ت فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط6، 1988، ص554، 555.

[2]-عبد الوهاب المسيري، الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2001ص249.

[3]-عبد الواحد يحيى، ، أزمة العالم الحديث، مرجع سابق، ص48، 49.

بني البشر من طور حضاري لآخر تبعا للظروف والأزمان، وكذا الذهنيات والآليات المتاحة، حيث تمتزج الثلاثية وتقدم نموذجا حضاريا إنسانيا فريدا لجنس معين.

إذا كان التميز الحضاري دليل وجود الصبغة البشرية لجنس إنساني، الذي ينسج إنتاجا فكريا وماديا من خلال مركب:روح-عقل بشكل مزدوج في حركة انسجام يمكن فيها أن يعلو أثر أحدهما بشكل ضئيل أو يتساوى مع الآخر بعملية البناء الحضاري، فإنه لابد لرصيد المعتقدات بما فيها من خيوط قيمية أن تتدخل وتصبغ وتقود المحتوى العلمي النظري والعملي.غير أن ما حصل بالمركب الحضاري الغربي الحديث، ترتيب جديد لم يعتده الإنسان بمسيرة الحضارة، والذي اتصل أساسا بالنشأة، البنية والتسخير الحضاري الذي وسم الغرب الحديث، و الذي تحدد بالإطار العلماني المتدرج من الجزئية إلى الشمول، وهو ما شكل مساحة انطلاق، تقدم وتوسع العلم وخروجه عن النطاق المرغوب منه ناحية علاقته بالإنسان، على وجه الخصوص، بعد أن انسلخ عن مجمل ما يحد من خطواته من معامل الدين والأخلاق، وصار هو من يحكم مساره، الأمر الذي أسفر عن ترجيح قبضة السيطرة العلمية المادية، لا على الإنسان وحده بل على العالم ككل، مع إطلاق العنان لكل ما يتيح تفجيرا أكثر للثورات العلمية والانجازات الواقعية بقطع النظر عن تبعاتها أو مرجعياتها، وهو ما أسفر بناحية موازية عن تصدع العلاقة بين العلم والإنسان نتيجة انتزاع مجمل الشروط والقيود المعنوية التي يمكن أن "تحصر"طريق العلم ومجده.

يرى "عبد الوهاب المسيري"أن انقطاع العلم عن المبادئ الأخلاقية وتبعات ذلك لا يمثل مجرد أزمة للعلم وحسب، بقدر ما هي في الحقيقة أزمة حضارية شاملة.فالحضارة الغربية أحرزت ما أحرزت من "تقدم" عبر التنصل من كل المبادئ الثابتة المطلقة-بما في ذلك الكائن البشري ذاته-أي تبعا لعلمانيتها الشاملة، حتى صار"التقدم"العلمي هدفا في حد ذاته، لا توقفه حدود أو شروط.إلا أن ما نعلمه كلنا أن هذا العلم مثل المارد الذي اندفع من القمقم، واندفع يرغم العالم لنهجه وصيرورته وتراكمه، دون أي مبالاة بالإنسان.واستحال الإنسان باعتباره غاية في حد ذاته، إلى اعتباره أداة توظف وتستعمل.لقد تبدت مجموعة من المفاهيم المتباينة التي تنصلت كليا من القيمة، فيوجد العلمانية الشاملة، والديمقراطية، والحرية كلها متنصلة من القيمة، وفي النهاية، يوجد العلم المتنصل من القيمة، إلا أن التنصل من القيمة يدل في الحقيقة على التنصل من الإنسانية.القضية لا تتحدد بعلم مأزوم، بقدر ما هي قضية حضارة اتخذت من الحياد مرمى، ومن إقصاء المبادئ الأخلاقية طريقا لتنفيذ التقدم.[1]ومن ثم فقد وصل العلم فالحضارة الغربيين إلى طريق مسدود بناحية مربط العلاقة بينهما وهو الإنسان جوهر العملية الحضارية وأساسها، ويصل الوضع حد التأزم الشامل، مع تطبيقات العلم التي لم تستثن حتى الإنسان، الذي نقلته منظومة الحداثة الغربية من كائن مركب ثنائي (مادة-روح)، إلى موجود أحادي تحيطه وتحتويه المادة، مع اكتساح العالم الطابع الحيادي الصارم، وتستحيل الحضارة الغربية المادية إلى حضارة متأزمة في ظل تأزم علمي-إنساني.

إن انطلاق الإنسان الغربي الحديث، من الجناح العقلاني وتوجهاته الفكرية- العلمية، واستناده على تقدماته من خلال ذلك، بخط مستقيم مفتوح المسلك والأفق، لإنتاج حضاري رفيع، قد حقق جزءه المرئي بشكل واضح للعيان مع بدايات الخوض البحثي في غمار الطبيعة فصنع الإنسان -الكائن الحضاري-، وأخفق في جزء مقابل ظهرت مخلفاته البعيدة بعد أشواط التطور بالحداثة العلمية، والتي أحدثت قلبا للهدف من العلم بالنسبة للإنسان، بما أتاحه ذلك لهذا من آليات الهتك بذاته ؛ليقف العلم الغربي الحديث بين ايجابية عظمى أكدت المزايا وسلبية إطلاقية قدمت الخلفية التي أبانت العيوب .يشير"المسيري"إلى ذلك فيورد"..ولكن حدث في القرن السادس عشر أن ظهرت الحداثة المنفصلة عن القيمة ومعها العلم المنفصل عن القيمة.وقد حقق العلم تطورات ضخمة في هذا الإطار، ولكننا بدأنا نكتشف خطورة هذا المفهوم

[1]-عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحداثة والعولمة، مصدر سبق ذكره، ص47، 48.

للعلم.هذا الغول الذي انطلق من إساره، وبدأ يهدد وجودنا، ولنذكر على سبيل المثال لا الحصر أسلحة الدمار الشامل–النفايات النووية–الاحتباس الحراري.أليس هذه كلها نتائج العلم والتقنية المنفصلين عن القيمة.."[1]ومن ثم فقد انكشفت الأهمية البالغة التي يمكن للقيمة أن تقدمها، والفعالية الهادفة التي يمكن أن ترشد العملية العلمية بميزان يوازن بين حلقة المعنى وحلقة المادة اللتان يمكن أن يقود إليها العلم داخل الذات الإنسانية وخارجها، وهو ما يجعل الأخير يسير أعرجا منذ استئنافه للدورة الحضارية بالحقل الغربي حديثا، وتبدى ذلك بعثرات خطاه حينا، وانكبابه وتناثره حينا آخر.

من زاوية مغايرة، وتبعا لمسار الفكر العلمي الغربي وتطبيقاته ابتداء من العصر الحديث فالمعاصر، بتناول مسألة العلم والقيمة، تبدو السيطرة العلمية في استمرارية متواصلة على طول خط التقدم الغربي، الذي لم يكفل تراجعا للإنسان الغربي فحسب، بل حتى للإنسان العالمي الذي صار إما"آلة"تستخدم من طرف"آلة"وإلا ينبذ ويطرح جانبا لا يأبه بوضعه ولا بمصيره أحد بعالم موضوعي–حيادي..ذلك ما صنعه الإنسان ذاته بذاته وبقيمته انطلاقا من نفيه لقيمه العليا، وإبدالها بما أقره التيار العلمي من منظومة قيمية حركية تتناسب ومضامينه، لتبرز أهمية الوعي بالوضع الذي يمكن أن يحصله انفصال التحديث عن القيمة.والسيطرة العلمية على الأرجاء.هذا بشكل مبدئي"والأهم من ذلك، بالنسبة إلى مكانة العلم في العصر الحاضر، أن العلم هو الإنجاز الذي يمكننا أن نسميه"مصيريا"بحق في هذا العصر.فلأول مرة في تاريخ تجربة الإنسان الطويلة على هذه الأرض، يدرك أن العلم هو الذي سيحدد مصيره سلبا أو إيجابا:إذ تعيش البشرية في خوف دائم من أن تدمر حياتها وحضارتها حرب نووية أو بيولوجية تعتمد اعتمادا كليا على العلم.وتعمل الدول لهذه الحقيقة ألف حساب في استراتيجياتها وسياساتها الأساسية، وفي طريقة إنفاقها لمواردها.ومن جهة أخرى فإن الأمل الأكبر لدى البشرية في مستقبل أفضل، وفي حل مشكلاتها الغذائية والصحية المستعصية، بل في استمرار قدرتها على البقاء والنماء، هو الآن معقود على العلم.[2] وعنه يمكن القول أن المشكلة الأساسية تتبدى في تدخل الإنسان لتوجيه العلم والآلة، باعتبارهما غير محتويين للضرر بطبعهما، بل أساليب استخدامهما من قبل الكائن البشري الجشع والأناني.تجاه الطبيعة بما تحمله من موجودات وأشياء؛فإن نتائج العلم مهما غالت في الانحراف، يبقى المسئول الأساسي هو العقل البشري.

قاد ارتكاز الموجود الإنساني على العقل واشتغاله على تصوراته الفكرية من خلاله، إلى توليد المرتكز العلمي وتطبيقاته الميدانية المحاكية للواقع المادي المسايرة لمتغيراته، والمتعاطية مع سائر القضايا والمسائل بمجمل المجالات في خضمه، ومن ثم فتح باب الارتقاء و التقدم من خلاله..كل ذلك البناء و التوجه، سمح بذوبان الإنسان وتبخر دوره أمام السيطرة العظيمة للمادة وتفردها بصبغ الموجود البشري، العالم والكون بخصائصها. تتضح السياقات التدرجية للتغيرات الجذرية التي أحدثها التطور العلمي، بتصلب العلاقات البشرية وبين هذه وما حولها، بعدما اكتسبت الطابع الموضوعي الشفاف وما يرفق ذلك من أشكال التخلص من الاتصالات الخالية من المقابل ذا الأثر والفائدة ؛فتتحول العلاقات نحو الاتسام بالسمة الآلية، ومن ثم "..فالتقنية هي تحول الأشياء إلى أدوات، والعالم التقني هو العالم الذي تصبح فيه الأداة نموذجا ومثالا.وبذلك تسهم التقنية في جعل العلاقة بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان والأشياء علاقة أداتية ونفعية. لم تعد الآلة استمرارا و امتدادا لحواس الإنسان وقدراته، بل أصبح الإنسان ذاته امتدادا للآلة إلى حد ما.لقد اكتسبت الآلة خصائص إنسانية بينما اكتسب الإنسان خصائص آلية."[3]

[1]–نفسه، ص123، 124.

[2]– –فؤاد زكرياء، التفكير العلمي، عالم المعرفة، الكويت، 1978، ص166.

[3]– محمد سبيلا، مدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2009، ص207.

أكسبت التطورات العلمية والتقنية الإنسان عديد المزايا وأضفت تحسينات على مجرى حياته، ونقلته جذريا إلى واقع جديد، استطاع من خلاله البلوغ إلى حصد الحاجات التي لطالما ابتغاها بما حوله، ضمانا لارتياحه؛إلا أن ذلك لم يصل إلى أبعاد عديدة متصلة بالعضو البشري، وبقي العلم عاجزا أمامها ؛فعلى الرغم من وصول الكثير من العلوم إلى طريق مفتوح يتقاطع مع رغبات الإنسان وطموحاته فتغطيها في إجمالها في كثير من الأحايين خصوصا مع التسارع الحاصل والمستمر"..ولكن هذه العلوم جميعها لم تستطع أن تحل مشكلات الإنسان في نفسه وعلاقاته.إن التكنولوجيا أو التقدم الفني يمكن أن يحل مشكلات الآلة وما يشبهها من مشكلات الإنسان.أما المشكلات السياسية والاجتماعية والنفسية والخلقية، والمشكلات التي يصنعها الإنسان بنفسه، سيظل يجابهها هو بنفسه، ولن يجد من الآلة و التكنولوجيا أكثر من عون محدود مهما عظمت الآلة ونمت".[1]بل بقدر ما أسهم العلم بتجاوز عديد الأزمات، بقدر ما خلق بالمقابل مجالا متراكما من البؤر الخطيرة بمختلف الميادين المرتبطة بالإنسان وما يحيطه أكثر حدة وأثرا.

نظرا لتوسعات التجارب العلمية، وانقياد الإنسان للانفجار الساحق الذي حققته، وتطلعه بانبهار وبلهفة وشغف دائب لمزيد من الانجازات التنويرية الحاسمة، التي فتحت أبواب المستقبل في الحاضر مع تسخير الآلية أكثر وتطورات التقنية المدهشة، ومن ثم توالي اندفاع وانشغال الفرد البشري إزاء رسم كيفيات وعوامل جديدة تواصل التقدم المذهل للتقنية؛وبنشر مجمل ما تضيفه من أبعاد للتحضر أكثر للإنسانية، قد أسهم ذلك في إفلات النسق العلمي من يد العقل، وراح يهرول وهمت خطواته في التسارع إلى أن ابتعد طويلا عن زمام الوعي بتبعاته. وهو ما نبه إليه "المسيري"فذكر"إن عدم التحكم أصبح سمة أساسية في عصرنا، وكلما زادت ميكنته والسيطرة عليه علميا، أي تقدمه، قلت إمكانية التحكم فيه.ويتبدى هذا في أمور كثيرة مثل مشكلات البيئة والفشل في التخلص من النفايات وتزايد الأمراض النفسية."[2] وبدل أن يسيّر الإنسان خطى العالم، من خلال عدة منظومات أبرزها منظومة العلم التي تعبر عن إبداعه ورقيه، نجده قد فقد توازنه على إثر فقدان توازن العلم، وهو ما انعكس سلبا على العالم في غالبيته الساحقة، من جراء أزمات العلم في ذاته من جهة، وبناحية علاقته بالإنسان والواقع الطبيعي من جهة أخرى، وبالإضافة إلى أزمات الكائن العاقل –مع اهتزاز حضارته وتزعزع أوصالها بفعل غياب التحكم الأخلاقي ومتابعاته بمجمل مركبات الحضارة– تبعا لذلك .

لقد تنبه الفكر العلمي والإنساني في الوقت الراهن إلى حقيقة عدم إمكانية بلوغ المعرفة الإنسانية اليقين الكامل، الذي يسمح بالسيطرة الشاملة على الأرجاء وبشكل تام وهو ما يباشر بانتهاء التاريخ وانتصار الكائن العاقل الغربي من خلال بلوغ تقدمه حده الأقصى؛حتى استسلم أخيرا للتسليم بنسبية المعرفة الإنسانية بعد تزعزع آماله بفكرة التقدم العلمي الحضاري ورجحان كفة ثمارها أمام كفة مفاسدها وهو ما يؤكد عليه"المسيري"في قوله"تساقطت كثير من الأسس التي يستند إليها مفهوم التقدم، فقد ظهر لنا أن كلا من العلم وعقل الإنسان محدود، ومن ثم تأكد لنا أن حلم التحكم الإمبريالي الكامل في العالم إنما هو وهم ما بعده وهم، وأنه حلم اختزالي طفولي وتبن لنماذج بسيطة، فنحن نحرز التقدم في ناحية لنكتشف بعض الآثار السلبية (غير المقصودة)في ناحية أخرى؛نتيجة لعدم إلمامنا بكل مكونات النظام البيئي وبكل مكونات النفس البشرية، فالنظام البيئي مركب والإنسان أكثر تركيبا."[3] ومن ثم فقد وجد العلم الغربي نفسه بنهاية العصر الحديث فالمعاصر أمام إشكاليتين أساسيتين متداخلتين فيما بينهما أولاهما إشكالية انفصال العلم عن القيمة، والتي جعلت منه الكيان الذي

[1]–عدنان علي رضا النحوي، تقويم نظرية الحداثة، دار النحوي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1 1992، ص97.

[2]–عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحداثة والعولمة، مصدر سبق ذكره، ص44.

[3]–عبد الوهاب المسيري، عزيز العظمة، العلمانية تحت المجهر، دار الفكر، دمشق، ط1، 2000، ص 137، 138.

يقف على الإنسان ويعلو، انطلاقا من افتراضات ومقدمات وتصورات ورؤى–خاطئة–ثانيهما، والتي قادت تمرده وهتكه بالعالم، قبل أن يراجع الفكر عديد "المسلمات الفكرية"، ويزيل عن العلم سمة الثبات والمطلقية.

إن أبرز ما توصل إليه الفكر العلمي حديثا فمعاصرا، هو الطابع التسلسلي والطردي للنظريات العلمية، التي تتبع بعضها البعض وتقوم على أنقاض بعضها، نقدا فاستكمالا للمسار النسبي للحقائق وهكذا، خلافا لما كان سائدا وطاغيا بشكل قطعي من أن بنية التجريبيات من العلوم تتيح إمكانية بلوغ نتائج نهائية وصحيحة وتنطبق بكل زمان ومكان. قد بلغ الفكر العلمي لتجاوز الثابت من الرؤى والنتائج ؛وهو ما انعكس سلبا بالجانب التطبيقي على الإنسان إما بنفي دوره أو إلحاق الضرر به .وتبقى العلوم الإنسانية إجمالا إطارا يغزوه الكيف والغاية.

على اثر التغيرات التي طرأت لمحرك العلم عبر تاريخه تبدى تدرج الوعي بمساره، من طرف الإنسان الذي توصل إلى أن العلم نشاط مرتبط بالكائن العاقل غير منفصل عنه، فهو يتدخل في تشكيله، وتبلوره ليتكامل معه في إحداث التغيير الواقعي، والمرتبط بالتغيير الإطار الفكري الإنساني ذاته، وتفاعلاته مع الطبيعة؛فقد اتصل الإنسان الحديث بالفكر العلمي في البداية من زاوية بعيدة بدور ثانوي ضئيل الأثر ، واقترب شيئا فشيئا من مجرد ملاحظ إلى مشارك عبر إلحاق الفرض والتجربة .من جهة أخرى، قد دفعت اكتشافات العقل الإنساني، والثورات العلمية التي فجرها عبر تجاربه إلى كشف حقيقة أن العلم والتي أخرجته من شرنقة المطلقية بأحكامه وتقراريره، فأضحى مخططا مؤقتا في مبادئه ونتائجه مع تلاحق النظريات والتفاسير، تبعا للظروف العلمية والأدوات والفكر والأبحاث، ومن ثم النظريات العلمية التي تتغذى من بعضها البعض بين إكمال وانفلات، والخوض في طريق جديد من نتائج أفضل قيمة من التي قبلها .وستندفع أخرى أكثر فاعلية وهكذا يستمر في تصحيح بعضه بمسيرة الإنسان على وجه الأرض.

يبقى العقل الإنساني مربطا للبحث الدائب عن الحقيقة على مستوى الكون، بما يقدمه من كشوف ونتائج مهما بلغت من مكاسب–وعلى الرغم من الرقي العظيم، الذي سمت إليه المساحة العلمية الغربية الحديثة والمعاصرة–يظل بعيدا عن المطلق والنهائي من كل الحوا صل والأحكام لمحدوديته وقصور ملكاته.وقد سمح اقتصار العلم الغربي على المعطى المادي إلى تحولات رفيعة وإنجازات هائلة وتعرجات وانحرافات علمية وإنسانية عميقة حسب المسيري، رسمت في إجمالها مسارا مزدوجا، فمثلت جانبا أساسيا أسهم بفعالية في عملية البناء الحضاري الغربي الحديث كما أدى إلى أزمة حضارية إنسانية، دفعت إليها توغلات العلم المادي.، فبدل تكريس العلم خدمة للإنسان أصبح الأخير آلة مسايرة وتابعة نتائج التقنية المتواصلة.

خاتمة:

يمكن أن نصل في الختام إلى مجموعة نتائج واستنتاجات مستنبطة من البحث، نعرضها كالآتي:

–إن الخلفيات النظرية التي مهدت و أسهمت في بلورة العلم الغربي الحديث، من خلال العقل، و مركزة الإنسان وتأكيد هيمنته الكونية–عند المسيري–لتمثل مصدر اختلال وضعية الإنسان أمام العلم وتوجهاته المادية، وترجيح تقدم الثاني على حساب الأول، بمسار شاسع لسيطرة الخط العلمي على الأرجاء .

–سلك العلم الغربي الحديث أشواطا من البحث النظري والعملي، الذي أتاح له منحى الاكتشافات والتجارب العلمية المتواصلة وفتوحاتها الشاسعة، قبل أن يصل إلى اصطدم بأزمات على مستوى الواقع التجريبي فرضت مراجعة خطواته النظرية، وإعادة بناء أنساقه المعرفية من جديد.

–مع توالد الثورات العلمية وما قدمته من تصورات ورؤى ومتغيرات كشفت الخلل والتعثر بالطروحات النظرية التي سادت؛لينتهي العلم ذاته إلى ضرورة فرض مراجعة لا بالإطار الفكري والنهج، بل حتى بالبنية والمفهوم، والغاية، وإحداث تغيير جذري بكل ذلك.

-تمرد العلم نهاية العصر الحديث عن تسيير الإنسان له، وهو ما تبدى مع التحولات الصناعية فالتطورات التقنية المتواصلة، التي بلغ من خلالها حدا كاسحا ببدايات العصر الحالي من التوسع ؛لتتدرج معها تجليات التأزم الغربي الحضاري بناحية العلم، على اثر تبعات سحب القيمة عن العلم –فيما يرى "المسيري"–وما جر تسلطا للرصيد العلمي على الإنسان، ومن ثم إضعاف سلطانه على حضارته حتى اختفى أثره.

-اكتشف الإنسان في النهاية من خلال النسق العلمي الذي تولد في أحضان الحضارة الغربية، أن العلم جزء من التركيب البشري؛باعتباره نشاط إنساني مرتبط بالتغير، الفعل، التفاعل للكائن العاقل، وبتجدد وتواصل إبداعاته، ومن ثم فهو مشروع مؤقت ونتائجه نسبية، مكملة لبعضها باستمرار عبر بوابة التاريخ.

المصادر والمراجع:

1–مؤلفات المسيري

– عبد الوهاب المسيري، الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2001.

–عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، القاهرة، المجلد1، ط1، 2002.

–عبد الوهاب المسيري، عزيز العظمة، العلمانية تحت المجهر، دار الفكر، دمشق، ط، 1، 2000.

–عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحداثة والعولمة، (محاورات)، تحرير، سوزان حرفي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2013.

2–المراجع:

– عبد الواحد يحي، أزمة العالم الحديث، ت، عبد الباقي مفتاح، عالم الكتب الحديثة، إربد–الأردن، ط1، 2017.

–عدنان علي رضا النحوي، تقويم نظرية الحداثة، دار النحوي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1992.

–غاستون باشلار، الفكر العلمي الجديد، تر عادل العوا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1982.

–فؤاد زكرياء، التفكير العلمي، عالم المعرفة، الكويت، 1978

–محمد سبيلا، مدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2009.

– ول ديورانت، قصة الفلسفة، ت فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط6، 1988.

–يمنى طريف الخلي، فلسفة العلم في القرن العشرين، عالم المعرفة، الكويت، 2000.